تقديم مركز نهوض للدراسات والبحوث

روى الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره أنَّ عمر بن الحسام كان يقرأ كتاب «**المجسطي**» على عمر الأبهري، فقال بعض الفقهاء يومًا: ما الذي تقرؤونه؟ فقال: أفسر آية من القرآن، وهي قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا﴾ (ق: ٦)، فأنا أفسر كيفية بنيانها. ثم يعقب الرازي على القصَّة بالقول: «ولقد صدق الأبهري فيما قال، فإن كلَّ من كان أكثر توغلًا في بحار مخلوقات الله تعالى كان أكثر علمًا بجلال الله تعالى وعظمته».

وإلى مثل هذا يذهب أبو العلاء المعرّي بقوله:

عجبي للطبيب يُلحد في الخالقِ من بعد درسه التشريحا

في هذين القولين تعبيرٌ عن نمطٍ من النظر العلمي الآياتي، الذي يروم الجمع بين آياتِ الطبيعة وآياتِ الكتاب، ويرى في دراسة المعطيات التجريبية واستعمالها بما يخدم الناس ضربًا من التعبُّد. ضمن هذه الرؤية، لم يكن تفسير الظواهر والكشف عن أسبابها مسوّغًا لنزع القداسة عنها، بل إدراكًا لأوجه الصنع المتقن، وتجلية لبراهين العظمة الإلهية. يمكن أن نستطرد مع هذه الفكرة فنتخيَّل قصَّة معاصرة مفادُها أن عالمًا ينكبُّ على دراسة الثقوب السوداء أو على دراسة النشأة الأولى لجماجم السلالات البشرية المختلفة مهتديًا بقول الحقِّ: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَ﴾ (العنكبوت: ٢٠).

لماذا إذن آلت مصائر العلاقة بين العلم الحديث Science والإيمان إلى ألوانٍ من الصدام والنزاع والتوتُّر؟ وكيف يمكن للمؤمن اليوم أن يجمع بين إيمانه الأصيل وبين التزامه بالمنهج العلمي ومخرجاته؟ يقدِّم هذا الكتاب الذي بين أيديكم إسهامًا علميًّا وفلسفيًّا ولاهوتيًّا للإجابة عن هذه الأسئلة.

يواجه كل من يقتحم اليوم حقل علوم الأعصاب أسئلةً تتعلَّق بارتباط الأفكار والمشاعر الإنسانية بحركة السيالات العصبيَّة على شبكة العصبونات الدماغيَّة، فهل يعني ذلك -كما يذهب الاختزاليون Reductionists من أمثال دانيال دانيت- أن العقل ليس إلَّا مجموعة من النبضات الكهربيَّة داخل الدماغ؟ وأن النفس والروح ليسا إلَّا وَهْمًا من اختراع الأديان؟ ثم إن الباحث لا بدَّ سيجدُ في أحد الكتب المرجعية لهذا الحقل فصلًا بعنوان: «**علم أعصاب الدين**»، وفيه سيقرأ من الآراء ما يذهب إلى أن النشاط الدماغي هو السبب الكافي لتفسير حالة الخشوع التي تعتري المُصلِّي في صلاته أو الدَّاعي في تبتُّله. وبالمثل، لا بدَّ لكلٍّ من يريد التعمُّق في علوم الأحياء ووظائف الأعضاء أن يعود إلى نظرية التطوُّر الداروينية، التي يقرن أكبر مُروجيها وأعلاهم صوتًا (من أمثال ريتشارد دوكينز وغيره) بينها وبين الإلحاد، بوصفه النتيجة الطبيعية لمن يدرسها.

لا يمكن أن يكون الحلُّ هو تجاهل المعطيات التجريبية، والاكتفاء بالإعراض عنها، دون تقديم بدائل وإجاباتٍ تستوعب هذه المعطيات في إطارٍ تفسيريٍّ مُقنِع، وهو حلٌّ لجأت إليه -مع الأسف- قطاعاتٌ واسعة من التيارات الدينية المحافظة، فلم يؤدِّ بها ذلك إلَّا إلى ظهور أجيال من المؤمنين الخائفين من مواجهة مستجدات العلم، وأجيال أخرى من المتمرّدين الذين انفتحت عيونهم على كتاب الطبيعة وخسروا كتاب الوحي. إن مقتضى أخذ الكتاب بقوَّة هو المداومة على الاجتهاد والتفكُّر، لوصل ما قطعته مناهج العلم الوضعي من استبعادٍ للغيب وحصرٍ للإنسان في بُعْده الفيزيقي، واختيار سردية تفسيرية دون أخرى، ثم تصوير ذلك بوصفه «العلم»، الذي لا يخرج عن مقتضياته إلَّا أهل الخرافة والمؤمنون بقصص الجنيات والأشباح!

إن التعمُّق في أسئلة المنهج العلمي، والبحث عن الانحيازات الفلسفية الكامنة وراءه، يكشفان للقارئ المدقّق أن الإلحاد موقف إراديّ لا معرفيّ، وأن الجمع بين الإيمان والعلم ممكنٌ، بل ووجيه، بل لعلَّنا لا نجانب الصواب إن قلنا إنَّ الموقف الإيماني كان محفِّزًا على الكشوف العلمية، وبابًا دافعًا لتوليد المعرفة العلمية «الحقَّة».

ينطلق كيلي جيمس كلارك من مذهب «**الكتابَيْن**» القائل بأن الله الخالق خاطبنا عبر كتاب الوحي وكتاب الطبيعة، وأن آيات الوحي وشواهد الطبيعة تؤكدان الحقيقة ذاتها ولا ينبغي لهما التعارض؛ فإن ظهر التعارض، فلا شكَّ أنه تعارض نابع من قصورٍ في الفهم والنظرية، وأنه سينجلي بمزيدٍ من التعمُّق. وهذا المذهب متأصِّل في الديانات الإبراهيمية الثلاث كلها، وفي الإسلام على نحوٍ آكد. فمن الكلمة «كُن» خُلِقَ العالَم، وكلمات الكتاب المسطور (القرآن) آيات، وشواهد الكتاب المنظور (الطبيعة) آيات أيضًا، وكلُّها تزيد العالِم يقينًا وخشية، وتدلُّه على وحدانية الخالق.

ضمن هذا الإطار الكُلي، يجول المؤلِّف بين العديد من حقول المعرفة العلمية، مؤكدًا إمكانية التوفيق بين إيمانه المسيحي وبين مقتضيات العلم الطبيعي. ويطالعنا المؤلِّف بعُدَّة فلسفية ولاهوتية متينة يتناول بها مستجدات النظريات العلمية في حقول علوم الفيزياء الكونية، وعلوم الدماغ والأعصاب، وعلوم الأحياء ونظرية التطوُّر، حيث تستأثر الأخيرة بحصَّة كبيرة من كتابه؛ وليس هذا بمستغربٍ، ذلك أن نظرية داروين قد أحدثت انقلابًا هائلًا في المنظور العلمي تجاه أصل الحياة والإنسان، وتسبَّبت في جدل ما يزال مستعرًا منذ نشر كتاب «**أصل الأنواع**» عام ١٨٥٩م.

الإسلام ونظرية التطوُّر: وقد خلقكم أطوارًا!

منذ أن بدأت مجلة **المقتطف** بإشاعة أفكار النشوء والارتقاء الدارويني بين القرَّاء العرب، تنوَّعت ردود الفعل بين مؤيد ومعارض. فلم يجد بعض العلماء (الدينيين) غضاضةً في القبول بالنظرية بصورتها العامَّة، بوصفها إبانة عن «كيفيَّة» الخلق، مستشهدين بآيات قرآنية تدعم الاتجاه العام للنظرية في رأيهم. والمفارقة التي تنبّهنا إليها مروة الشاكري في كتابها «**قراءة داروين في الفكر العربي ١٨٦٠–١٩٥٠م**» هي أن أعلى الأصوات رفضًا لنظرية داروين جاءت من صفوف المسيحيين اللبنانيين، الذين رأوا فيها معارضةً صريحةً للتفصيل الدقيق الذي يورده الكتاب المقدَّس لقصَّة الخلق.

بل إن البعض ذهب إلى تأكيد سَبْق المسلمين لداروين في الحديث عن التطوُّر، مستشهدين بملاحظاتٍ وردت عند الجاحظ وإخوان الصفا ومسكويه وابن خلدون وجلال الدين الرومي، وهو أمرٌ يحتاج إلى توقُّف يسير لإبراز أثر اختلاف «البراديغم» (النموذج الإرشادي) الذي حكم رؤية المسلمين عن «البراديغم» التطوُّري الحديث. فقد أدرك المؤلفون الإسلاميون ما بات يُعرف بـ «شجرة الحياة»، أي ترابط الأنواع، فـ «آخر أُفق النبات متصلٌ بأول أُفق الحيوان ... واتسع عالم الحيوان وتعدَّدت أنواعه وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والرَّوِيَّة» كما يقول ابن خلدون، ولكنهم عبَّروا عن هذا الترابط بلفظة «الاتصال» التي تعني عند ابن خلدون «الاستعداد الغريب» للانتقال إلى الأفق التالي. واللافت للنظر عند المقارنة بين الخطاب المصاحب لنظرية التطوُّر الداروينية، وبين خطاب أهل النظر العلمي من المسلمين عدَّة أمور:

١. سلَّم المسلمون بغائية الخلق، فهو ليس مجرَّد صدفة عشواء، بل هو فعل الخالق الحكيم، حتى لو كانت «الطفرات» واحدةً من أدواته وكيفياته. وسيكتشف قارئ هذا الكتاب أن القول بـ «العشوائية» و«المصادفة» ليس موقفًا علميًّا لازمًا لنظرية التطوُّر، بل هو أقرب إلى الفرضية الميتافيزيقية التي لا سبيل إلى إثباتها علميًّا.

٢. أدرج أصحاب نظرية «الاتصال» المعادنَ في عالم التكوين، الذي يشمل النبات والحيوان والإنسان (ويشمل الملائكة أيضًا). والمغزى من ذلك أن جميع الكائنات لديها استعدادات (وأرواح كما قال كثيرٌ من أهل النظر والكشف)، حتى الجمادات. إذن، بينما يذهب الخطاب التطوُّري إلى الحطِّ من رتبة الإنسان بوصفه مجرَّد حيوان توجِّهه الغرائز ويحكمه الصراع من أجل البقاء، تذهب التصورات الإسلامية إلى الرفع من مكانة الموجودات كلِّها، فكلُّها مُسبِّحة شاهدة على الواحد الأحد.

٣. تذهب نظرية الاتصال إلى أن «وضع الإنسان ليس وضعًا نهائيًّا» كما يقول محمد إقبال، بل إن واجبه هو إكمال رحلة التطوُّر والارتقاء إلى

رتبة المَلَكيَّة (أو الملائكية)، بأن يخلص من قيود الشهوات فتصفو نفسه لاستقبال أنوار الحقّ. وانظر إلى كلام ابن خلدون في ذلك إذ يقول: «فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعدادٌ للانسلاخ من البشرية إلى المَلَكيَّة ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتًا من الأوقات في لمحة من اللمحات». إن هذه النظرة تجعل من مبدأ التطوُّر مبدأ أخلاقيًّا، لا ينزع عن الإنسان كرامتَه بوضعه في مصافِّ البهائم العجماء، بل يُبشّره بأن أُفق إمكاناته النهائي لم يتحقَّق بعدُ، وأنه -كما ارتقى من حال أدنى- قادرٌ على الارتقاء إلى حال أسمى.

إذن، قد تكون المعطيات العلمية التجريبية واحدةً، ولكن الخطابات النظرية والسرديات التفسيرية لهذه المعطيات قد تختلف اختلافًا جذريًّا، وتختلف معها المآلات الأخلاقية للأفراد والمجتمعات.

جدالات حديثة

تصحُّ هذه الخلاصة على الجدالات الحديثة حول نظرية التطوُّر وغيرها من النظريات العلمية، وهي جدالات يبرع المؤلِّف في تتبُّعها وتلخيصها بلغةٍ رشيقةٍ وأمثلةٍ تُقرّب المعنى إلى القارئ ذي العُدَّة الفلسفية المتوسطة. فالمؤلِّف يعرض حجج القائلين بالتصميم الذكي، والتطوّر الموجّه، كما يعرض حجج الداروينيين. وعلى الرغم من أن المؤلِّف يقدِّم رأيه بخصوص الجدالات العلمية والفلسفية الساخنة، فإنه كثيرًا ما يؤجّل إبداء رأيه قبل عرض النظريات والأفكار المختلفة -بل والمتخالفة المتعارضة- عرضًا وافيًا، وأحيانًا ما ينأى عن توجيه قارئه نحو الانتصار لإحدى النظريات على أخرى، بل يكتفي بإظهار أن التوفيق بين المعتقد الديني (المسيحي بالأخص) وبين النظرية العلمية ممكنٌ ووجيه.

نؤمن في **مركز نهوض للدراسات والبحوث** بأن العمل على الأسئلة الفلسفية والعلمية المتعلِّقة بالمسألة الدينية مهمٌّ وضروريٌّ، وأن تجديد النظر الديني لا بدَّ أن ينطلق من الأصول الكبرى، وأن يشتبك مع شتَّى حقول المعرفة العلمية

في مجالات العلوم الإنسانية والطبيعية وتداخلاتها الخصبة. وقد ترجمنا في هذا السياق الكتابَ الكلاسيكي للفيلسوف وعالم النفس الأمريكي وليام جيمس «**تنويعات التجربة الدينية**»، الذي تتصل كثيرٌ من مباحثه بأسئلة هذا الكتاب، خاصةً في ميدان علم النفس الديني.